﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾ [الواقعة: 75 - 80]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من الأدلَّة الأرضيَّة إلى الأدلَّة السَّماويَّة

لمّا تقدَّم في الآيات مشاهد الخلق والإحياء، من الماء والنّار، والزَّرع والنَّشأة الأولى، في أسلوب تقريريٍّ يحمل في طيّاته التَّقريع والتَّذكير؛ ناسب أن يذكر الأدلَّة على النُّبوَّة، وصدق القرآن الكريم[1]، فهو انتقال من الأدلَّة الأرضيَّة إلى الأدلَّة السَّماويَّة، أو من الأدلَّة الحسّيَّة إلى الأدلَّة المعنويَّة، على قول من يرى أنَّ مواقع النُّجوم نزول القرآن.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِمَوَٰقِعِ﴾: (وقع) يدلُّ على السُّقوط والاستقرار في موضع مخصوص، يقال: وقع الشَّيء؛ إذا سقط، أو ثبت في مكانه[2]، والواقعة: القيامة؛ لأنَّها تقع بالخلق، فتغشاهم، والوقعة: صدمة الحرب[3]، فالمواقع هي المواضع الَّتي تستقرُّ فيها الأشياء، أو تغيب فيها، ومنها مواقع النُّجوم في السَّماء، أي: مواضع مغاربها أو مطالعها أو منازلها الفلكيَّة الَّتي تسير فيها على انتظام لا يختلُّ.

2) ﴿مَّكۡنُونٖ﴾: (كنن) أصلٌ في السَّتر والتَّغطية والإخفاء، يُقال: كننت الشَّيءَ أكنُّه كنًّا؛ إذا سترته، وأخفيته[4]، ومنه: الكِنُّ، لما يُكنُّ المرءَ من سقفٍ أو ظلٍّ أو بيت، والكنز من مكنون المال، أي:

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 386.
(2) الراغب، المفردات: (وقع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقع).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (كنن).

ما خُبِّئَ عن أعين النّاس، فـ(الكِنُّ) السُّترَةُ، والجَمعُ (أكنانٌ)، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾ [النّحل: 81]، و(الأكِنَّةُ) الأغطيَةُ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾ [الأنعام: 25]، والواحِدُ (كِنانٌ)[1]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾، "قيل: عنى بالكتاب المَكنونِ اللَّوح المحفوظ، وقيل: هو قلوب المؤمنين، وقيل: ذلك إشارة إلى كونه محفوظًا عند اللّه تعالى، كما قال: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]"[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

القسم بمواقع النجوم فيه ربط مشاهد القدرة بتنزيل القرآن الكريم

ابتدأتِ الآيات بالقسم بـ(مَواقِعِ النُّجومِ)، وهي من أعجب ما في الخلق، غموضًا وبُعدًا وانتظامًا؛ ليُلفت القلوب إلى عظمة المقسَم به، ثمَّ يُعلِّق على هذا القسم بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، فالقسم نفسه من دلائل القدرة، كما أنَّ المقسَم عليه لا يقلُّ شأنًا؛ إذ هو هذا القرآن الكريم، الشَّريف في معناه، البليغ في لفظه، العالي في منزلته، "وقيل في ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ قولان: أحدهما: أنَّه يعني بها القرآن؛ لأنَّه نزل نجومًا على النَّبيِّ ﷺ، وهذا قول ابن عبّاس ومجاهد. والثّاني: أنَّه يُراد بها مساقط نجوم السَّماء ومطالعها، وهو قول قتادة، وروي مثله عن مجاهد في بعض الرِّوايات عنه، وقال الحسن: مواقعها: انكدارها وانتشارها يوم القيامة"[3].

ثمَّ وصفه بأنَّه ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾، أي: محفوظ مصون، لا يُمَسُّ، ولا يُتناول على جهة العبث أو التَّحريف، بل هو في موضع عالٍ من الحفظ والتَّقديس، لا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ؛ إشارةً إلى تنزيه مصدره، ورفعة منزلته، وطهارة من يُؤذن لهم بتلقّيه من الملأ الأعلى.

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (كنن).
(2) الراغب، المفردات: (كنن).
(3) القيروانيّ، النّكت في القرآن، ص: 478.

ثمَّ خُتِم هذا السّياق الجليل بقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فهو ليس من عند بشر، ولا من فيض فكر، بل هو وحي صادر من خالق الأكوان، الَّذي أبدع الماء والزَّرع والنّار، وأودع في كلِّ شيءٍ قدرةً، وفي كلِّ نعمةٍ تذكرة، وفي كلِّ آيةٍ دعوة إلى أن يُصدِّق النّاس بهذا الوحي، ويعلموا أنَّ ما فيه من دلائل الخلق ما هو إلّا فصلٌ من كتابٍ كريم، لا يأتيه الباطل، ولا يجرؤ على مسِّه إلّا من طَهُرت قلوبهم، أو صَفَت أرواحهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الفاء ودلالتها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ فاء تفريع على جملة: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ﴾[1]، وهي متعلِّقة بما قبلها من سياق عرض دلائل الخلق والتَّدبير في الزَّرع والماء والنّار، وما ترتَّب عليها من وجوب التَّسبيح والتَّقديس، فتكون هذه الفاء تفريعًا على جملة مقدَّرة معناها: (فبما ظهر لكم من دلائل عظمة الله وربوبيَّته، فإنّي أقسم على أمر عظيم)، وجاء هذا القسم تثبيتًا لما سيُذكر من تعظيم القرآن.

وفي هذا السّياق، تُفَسَّر الفاء على أنَّها تربط بين مشاهد الكون السّابقة، الَّتي دلَّت على القدرة الإلهيَّة، وبين إثبات أمرٍ عظيم هو: عظمة هذا القرآن، والمعنى: بعد أن استبان لكم أنَّه لا ربَّ سواه، وأنَّه المتفرِّد بالإنشاء والإمداد، أقسم لكم - على ما يليق بعظمته - أنَّ هذا القرآن من عنده، وأنَّه لَكتاب كريم.

دلالة استعمال (لا) في سياق القسم:

ذهب كثيرٌ من المفسِّرين إلى أنَّ (لا) في قوله تعالى: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ ليست نافية حقيقةً، وإن كان ظاهرها كذلك، بل هي على ما جرى عليه أئمَّة البلاغة من قبيل (لا) الزّائدة في مقام التَّوكيد والاهتمام[2]، وخصوصًا عند إرادة القسم على أمر عظيم، فتكون دالَّة على تنزيه المقسَم به عن أن يكون محلَّ شكٍّ أو ممّا يُحتاج إلى القسم عليه لثبوته.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 329.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 466، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 425، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 91، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 428، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 330.

احتمال (لا) للنَّفي والتَّوكيد قوَّةٌ في القَسَم وبلاغةٌ في المقسَم عليه

ومذهب بعض المحقِّقين من المفسِّرين بأنَّ (لا) أفادت نفي الحاجة للقسم، وهو أشدُّ من القسم، فهو "عبارة من عبارات العرب في القسم، يُراد بها توكيدُ الخبر، كأنَّه في ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى قسم، ويُقال: إنَّه يؤتى بها في القسم؛ إذا أُريد تعظيم المقسم به، كأنَّ القائل يقول: إنِّي لا أعظِّمه بالقسم؛ لأنَّه عظيم في نفسه"[1]، فقوله: ﴿*فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ "بتمامها صيغة من صيغ القسم، على ما ارتضاه بعض المحقِّقين"[2].

وهذا من أساليب التَّمهيد للقسم، يُستعمَل في مقام التَّفخيم والتَّشويق، ولذا عقبها بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، فكان الغرض من إدخال (لا) تعظيم موضع القسم، والتَّنبيه على أنَّ المقسَم به من الجلالة بمكانٍ لا يُحتاج معه إلى أن يُعزَّز بالقسم، ولكنَّ البيان شاء أن يلفت الأسماع والأفهام إلى عظم المقسَم عليه، وهو القرآن الكريم.

بلاغة استعمال مفردة ﴿أُقۡسِمُ﴾:

بلاغة العدول إلى الفعل (أُقسِم) عندما يصير القسم فعلًا مقصودًا لذاته

استعمل النَّظم الكريم لفظ ﴿أُقۡسِمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿*فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ دون الألفاظ الرَّديفة، أو أساليب القَسَم باستعمال أحرف القسم؛ لما في ذلك من إظهار العناية بالفعل نفسه، والتَّنويه بجلال ما يُراد تقريره بهذا القسم.

والإتيان بالفعل ﴿أُقۡسِمُ﴾ يُضفي على القسم صبغة خطابيَّة سامية، كأنَّ المتكلِّم العليَّ جلَّ شأنه يُنبئ عن دخوله في مقام القسم بمحض إرادة وتعظيم، وليس فقط بإيقاع اليمين على شيء، فصار القسم نفسه فعلًا مستقلًّا يُشار إليه، ويُنظر في ذاته، لا فقط في مضمونه، ولهذا قال عقب ذلك: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، فالقسم بذاته من الأدلَّة العظيمة، لا من حيث ما يؤكِّده فقط.

(1) بنت الشّاطئ، التّفسير البيانيّ للقرآن الكريم: 1/ 165.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 9/ 128.

نوع الباء ودلالتها:

بـــاء الـقـسـم بلاغة التَّعظيم والـتَّـقـديـم في قسمٍ قرآنيٍّ

الباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ هي باءُ القَسَم، وهيَ الدّاخِلَةُ على المَجرورِ؛ لِتَدُلَّ على المُقسَمِ بهِ، وهي مِن أشهَرِ حُروفِ القَسَمِ في لِسانِ العَرَبِ، وتَدخُلُ على الجَليلِ مِنَ الأشياءِ لِعَظيمِ شَأنِها، وهو ما يُناسِبُ المَقامَ هُنا.

والبَلاغَةُ في استِعمالِ هذهِ الباءِ أنَّها تَدُلُّ على عَظَمَةِ المُقسَمِ بهِ وتَعَلُّقِ نَفسِ المُتَكَلِّمِ بهِ، فالباء تُنشِئُ لَحظَةً مِنَ التَّوجيهِ والانتِباهِ إلى ما بَعدَها، وتُنَصِّبَ مَواقِعَ النُّجومِ في مَوضِعِ التَّعظيمِ والتَّمجيدِ، لا لِذاتِها، ولَكِن لأنَّها آيَةٌ مِن آياتِ القُدرَةِ الإلهيَّةِ الَّتي تَستَحِقُّ أن يُقسَمَ بها.

دلالة مفردة (مواقع):

(مَواقِعِ النُّجومِ) من أفول الأجرام إلـــى جـلال التَّنزيل

لفظة مواقع تنطوي على دلالة أدقَّ من مجرَّد (مواضع) أو (مسارات)، فهي توحي بمكان السُّقوط بعد قطعٍ طويل، وكأنَّ النَّجم لا يُرى حين يطلع، وإنَّما يُدرَك أثره حين يأفل، ومن هنا جاء التَّعبير بـ(مواقع النُّجوم) لا بـ(النُّجوم) نفسها؛ لأنَّ الوقوف على مواقعها أدلُّ على العظمة وأبعث على التَّأمُّل.

وقد تُحمَل الكلمة أيضًا على مواقع نجوم القرآن، أي: منازل آياته، ومراحل تنزُّله، وهي قراءة أخرى تفتح بابًا على معاني الوحي وتدريجه، فيكون القسم تعظيمًا لطريقة التَّنزيل كما هو تعظيم لموضع التَّأمُّل في الآفاق[1].

وهذا الاختيار اللُّغويُّ يشي بجلال المقسَم به، ويُهيّئ الذِّهن للمُقسَم عليه، في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾؛ توكيدًا على أنَّ ما بعده - وهو شرف القرآن - حقٌّ لا يُمارى فيه، ونعمة توجب التَّقديس والتَّسبيح.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 467.

نكتة جمع (مواقع):

مواقع النُّجومِ تُنبئ بعظمةِ الآيات الكونيَّة وبلاغة الآيات القرآنيَّة

قوله: ﴿*فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾، المواقع: هي أفلاك النُّجوم المضبوطة السَّير في أفق السَّماء، وكذلك بروجها ومنازلها[1].

نُكتَةُ جمع (مَواقِع) في قَولِه تَعالى: ﴿*فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ أنَّهُ تَعبيرٌ تَغلبُ عَلَيهِ لَمسَةُ التَّهويلِ والتَّفخيم، فالجَمعُ هُنا يوحي بكَثرَةِ المَواقِعِ وتَعَدُّدِها، وبِتَنوُّعِ أحوالِها، مِن سُقوطٍ ومَغيبٍ وتَفَتُّتٍ وتَناثُرٍ، وكُلُّ ذلكَ يُلقي في القَلبِ عَظَمَةَ المُقسَمِ بِهِ، فكُلُّ مَوقِعٍ مِن هَذِهِ المَواقِعِ آيَةٌ باهِرَةٌ على إتقانِ صَنيعِ الرَّبِّ، ونِظامِ كَونِهِ[2]، فكَيفَ إذا اجتَمَعَت هَذِهِ المَواقِعُ، وتَناسَقَت؟.

وَمِمّا يُؤَكِّدُ هذِهِ النُّكتَةَ أنَّ المُرادَ بـ(مَواقِعِ النُّجومِ) - على أرجَحِ الأقوالِ - هيَ مَواضِعُ سُقوطِها في الأُفُقِ، أو مَنازِلُها، أو حَتَّى تَفَتُّتُها في سُرعَةِ الإبلاغِ، كَنُزولِ الوَحيِ نَجمًا نَجمًا، فالجَمعُ هُنا أدَقُّ في التَّعبيرِ عَن تَفرُّقِها في الزَّمانِ والمَكانِ، وفي الحِسِّ والمَعنَى، وكُلُّ ذلك يَنسجُ لِلقارِئِ خَيطًا مِنَ التَّدَبُّرِ يُفضي إلَى تَعظيمِ القَسَمِ وتَوقيرِ المُقسَمِ عَلَيهِ، وهوَ القُرآنُ الكَريمُ في مَقامِ التَّنزيلِ والحِفظِ والمَصدَرِ الإلهيِّ.

ويَرَى بَعضُ أئِمَّةِ التَّفسيرِ أنَّ مَواقِعَ النُّجومِ هُنا هيَ نُجومُ القُرآنِ وتَنَزُّلُهُ، فتكون نكتتُه، بأن: "جَعَلَ إنزالَ القُرآنِ نُجومًا مُفَرَّقَةً، وبَوارِقَ مُتَلألِئَةً مُتَأَلِّقَةً، قالَ: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾، أي: بمَساقِطِ الطَّوائِفِ القُرآنيَّةِ المُنيرَةِ النّافِعَةِ المُحييَةِ لِلقُلوبِ، وبِهُبوطِها الَّذي يَنبَني عَلَيهِ ما يَنبَني مِنَ الآثارِ الجَليلَةِ، وأزمانِ ذلكَ وأماكِنِهِ وأحوالِهِ، وبِمَساقِطِ الكَوكَبِ وأنوائِهِ، وأماكِنِ ذلكَ وأزمانِهِ في تَدبيرِهِ على ما تَرَونَ مِنَ الصُّنعِ المُحكَمِ، والفِعلِ المُتقَنِ المُقَوَّمِ، الدّالِّ بغُروبِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 331.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 424.

الكَواكِبِ على القُدرَةِ على الطَّيِّ بَعدَ النَّشرِ، والإعدامِ بَعدَ الإيجادِ، وبِطُلوعِها الَّذي يُشاهَدُ أنَّها مُلجَأٌ إلَيهِ إلجاءَ السّاقِطِ مِن عُلوٍّ إلَى سُفلٍ، لا يَملِكُ لِنَفسِهِ شَيئًا"[1].

توجيه القراءات القرآنيَّة:

بلاغة الجمع والإفراد بين نظام الكون وتنجيم الوحي

اختلف القرّاء في قراءة ﴿بِمَوَٰقِعِ﴾ في قَولِهِ تَعالى: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾؛ فقرأ حمزة، والكسائي، وخلف بإسكان الواو من غير ألف على الإفراد: ﴿بِمَوۡقِعِ﴾، وقرأ الباقون بفتح الواو وألف بعدها على الجمع: ﴿بِمَوَٰقِعِ﴾، "[2]، فمن قرأ بصيغة المفرد فعلى أنَّه مصدر ميميٌّ، أي: بوقوعها، أي: غروبها، أو هو اسم لجهة غروبها، كقوله: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [المُزَّمِّل: 9][3].

لكنَّ توجيه هذا الجمع من جهة العربيَّة والتَّفسير يُحتمل فيه نُكتٌ بيانيَّة بديعة، فالمراد بالمواقع هنا: مواطن سقوط النُّجوم، أي: أفولها وغروبها، وقيل: مواقع نزولها في السَّماء، أو في التَّنجيم (النُّزول شيئًا فشيئًا)، أو أماكنها الَّتي تقع فيها في الكون، وهي قرينة على التَّرتيب الدَّقيق، والتَّدبير البديع، فاللَّفظُ بصيغة الجمع يَحمل معنى الكثرة والتَّنوُّع، وهو أبلغ من الإفراد؛ لأنَّ المراد ليس موقعًا واحدًا بل نظامًا سماويًّا متقنًا يتكرَّر ليلًا ونهارًا، في كلِّ نجم، وفي كلِّ مدار، وفي كلِّ دورة.

وإذا وُجِّه اللَّفظ على أنَّه إشارة إلى تنزيل الوحي نجمًا نجمًا - كما روي عن بعض السَّلف - فالجمع أدقُّ؛ لأنَّه يُشير إلى تنزُّلات متعدِّدة في أوقات وأحوال متباينة.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 424.
(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 383.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 331.

فائدة استعمال لفظ ﴿ٱلنُّجُومِ﴾:

انبعاث النّورِ عن النُّجومِ والهداية عن آيات القرآنِ

آثر النَّظم الكريم لفظَ ﴿ٱلنُّجُومِ﴾ على (الكواكب)، في قوله تعالى: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾؛ ذلك أنَّ النُّجوم يُراد بها تلك الأجرام السَّماويَّة الَّتي تُرى في اللَّيل لامعةً متألِّقة، تُشهِدُ النّاظرَ ببهائها وهيبتها، وتبعثُ في النَّفس عظمةً وخشوعًا، وهي مظنَّةُ الاستدلال ومثار التَّأمُّل، وتتناسب مع ما في القرآن من الهداية والتَّنوير والإعجاز، أمّا الكواكب، فإنَّها - وإن كانت تشترك مع النُّجوم في كونها أجرامًا سماويَّة - إلّا أنَّها لا تفيد الانبعاث النّوريَّ، وبعضها قد لا يُرى إلّا بمراصد، فلا تحقِّق المقصد من القسم، وهو إثارة التَّوقير والرَّهبة في النَّفس.

نكتةُ ذكر (مواقع) دون الاكتفاء بالنُّجوم:

المـواقـعُ أشمل ودلالتها أوسع وأثرها في النَّفس أشرق

القسم ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ أدقُّ وأعجب من ذكر النُّجوم مجرَّدة؛ إذ إنَّ المواقع تشمل لحظات طلوعها وغروبها، وانفجارها وانطفائها، وبعدها المهول في الزَّمان والمكان، وكلُّ ذلك ممّا لم يكن يدركه العرب حينذاك علمًا، ولكنَّه يثير فيهم الخشوع الفطريَّ والدَّهشة التَّأمُّليَّة.

ولذا كان القسم بمواقع النُّجوم - لا بالكواكب ولا بالنُّجوم مطلقًا - أبلغَ وأدلَّ على جلال الخالق، وتمهيدًا لإبراز جلال المقسَم عليه، وهو: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلنُّجُومِ﴾:

النجوم معهودةٌ في الأذهان في الاهتداء والتَّزيين

جاء لفظ النُّجوم مُعَرَّفًا بـ(الـ) في قوله تعالى: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾، وفي هذا التَّعريف دلالةٌ مقصودة، تؤكِّد المقصود من القسم، وتثري دلالته، فـ(الـ) الدّاخلة على النُّجوم هي (الـ) للعهد الذِّهنيِّ، يُراد بها النُّجوم المعلومة المشاهدة في الأفق، وهي الَّتي يتأمَّلها النّاس،

ويتَّخذونها علامات، ويهتدون بها في ظلمات البرِّ والبحر، وهي كذلك ذات النِّظام الدَّقيق والمواقع المدهشة الَّتي يقف الإنسان أمامها مبهوتًا، فكأنَّما الخطاب الإلهيُّ يلفت السّامع إلى شيء معهودٍ في نفسه، معلومٍ له بالرُّؤية، لكنَّه غفل عن دلالته وأبعاده.

نوع الواو ودلالتها:

الاعـــتراض بين القسم وجوابه تنبيهٌ على عظيم المقسَم به

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ معترضة، والجملة معترضة بين القسم وجوابه[1]، فليس المقصود مجرَّد الإخبار بالقسم، بل التَّنبيه على فخامته وجلالته، بما فيه من عظمة الموضع المقسَم به، وما يترتَّب عليه من أهمّيَّة المقسَم عليه.

وتكمن بلاغة هذه الواو في أنَّ السّياق قبلها كان سياق إثارةٍ وتعجيبٍ من مواقع النُّجوم، فجاءت الواو؛ لتحمل التَّقدير: (وأنتم لا تدرون عِظَمَه، ولكن لو علمتم؛ لعرفتم أنَّه قسمٌ عظيمٌ جدًّا)، ولذلك جاء التَّعبير بأسلوب الشَّرط بعده: ﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ هذا العلم مغيَّبٌ عن أكثر النّاس، ولكن لو تحقَّق لهم؛ لتبيَّن لهم أنَّ المقسَم به لا يكون إلّا لأمرٍ جليل، وهو ما سيأتي التَّصريح به بعد ذلك: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾.

يقول السَّمين: "وأبى ابنُ عطيَّة أن يُجْعَلَ قولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ اعتراضًا، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ توكيدٌ للأمرِ، وتنبيهٌ المُقْسَم به، وليس هذا باعتراض بين الكلامَيْن، بل هذا معنًى قُصِدَ التَّهَمُّمُ به، وإنَّما الاعتراضُ قولُه: ﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ﴾، قلت: وكونُه توكيدًا ومُنَبِّهًا على تعظيم المُقْسَم به لا يُنافي الاعتراضَ بل هذا معنى الاعتراضِ وفائدتُه"[2].

بلاغة التَّوكيد في جملة ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾:

جاء التَّوكيد في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 331.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون في علوم الكتاب المكنون: 10/ 223.

بمؤكِّدين اثنين: إنَّ واللّام، وقد ورد هذا التَّوكيد في جملة معترضة بين قسمٍ عظيم وجوابه؛ ليلفت الانتباه إلى أهمّيَّة المقسَم به وجلالة شأنه، لا من حيث ذاته فقط، بل أيضًا من حيث ما يراد إثباته بهذا القسم، وهو عظمة القرآن وسموُّ مصدره.

ترسيخُ عظمة المقسم به توطئةٌ لإعلاء شأن القرآن

تعيين مرجع الضَّمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، يعود الضَّمير في (إنَّه) إلى نفس القسم المتقدِّم في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾، لا إلى مواقع النُّجوم نفسها، وإن كانت هي المقسَم به؛ لأنَّ المقصود هنا ليس ذات النُّجوم ولا مواضعها، وإنَّما هو فعل القسم وما ينطوي عليه من تعظيمٍ وتهويل، "أو عائدًا إلى مواقع النُّجوم بتأويله بالمذكور، فيكون (قسم) بمعنى مقسم به، كما علمت آنفًا، ويجوز أن يعود إلى المقسم عليه، وهو ما تضمَّنه جواب القسم من قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ﴾"[1].

القسم عظيم في ذاته عظيم في مآله عظيم في آثاره

فالمعنى: وإنَّ هذا القسم الَّذي وقع بمواقع النُّجوم، لقَسمٌ عظيم لو كنتم تعلمون ما في تلك المواقع من أسرار، وما تحتها من دلائل على عظمة خالقها، وجلال المنزَّل منه هذا البيان، فمواقع النُّجوم، بما فيها من بعدٍ وعمق وغموض، وما تكشف عنه من سنن الكون المحكمة، ليست مواضع عبور فحسب، بل منازل آياتٍ تشهد بالقدرة، وتنطق بالوحدانيَّة، ولكنَّ القلوب الَّتي أعرضت لا تُبصر من مواقع النُّجوم إلّا منظرًا، ولا تُدرك من القسم بها إلّا لفظًا.

توجيه نفي القَسَم ثمَّ إثباته مؤكَّدًا:

النَّفي في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾، نفيٌ للحاجة إلى القسم، وهو أبلغ من القسم، فالَّذي يُفهم منه إرادة إثبات

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 331.

القَسَم، فكأنَّه يقول: لا أُقسِم بهذه الأشياء على وجه التَّهوين أو المجاز، بل أُقسِم بها على وجهٍ عظيم، أي: لا حاجة بي إلى القسم لوضوح الحقِّ، ومع ذلك فإنّي أُقسم تعظيمًا للمقسَم عليه، وهو القرآن الكريم[1].

الانتقال من نفي الحاجة للقسم إلى بيان عظمته، فالنَّفي للحاجة لا للقسم

ثمَّ يأتي الإخبار المؤكَّد: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾؛ ليقرِّر أنَّ هذا القسم بحدِّ ذاته، أي: القسم بمواقع النُّجوم، أمر عظيم لو علمتم حقيقته، كأنَّه يقول على فرض القسم، فهو قسم عظيم، فهو نفيٌ يُراد منه التَّنبيه على عظيم الأمر، ثمَّ إثبات يُراد منه إثبات عظمة القسم.

نكتة تنكير لفظ (قَسَم):

الإبهام رائد التَّفخيم وبريد التَّعظيم

نُكِّر لفظُ (قَسَمٌ) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ تتجلّى دلالته فيما يُشبه الإبهام الَّذي يُرادُ به التَّفخيم[2]، وقد جَرَت عليه عادةُ العرب في كلامهم؛ إذا أرادوا تعظيمَ شأن شيءٍ أن يُطلقوه مُنكَّرًا؛ ليكونَ أعمَّ وأوسعَ وأغزرَ في النُّفوس، فكأنَّه يقول: وإنَّه لقَسَمٌ عظيمٌ لا يُحيطُ به وصف، ولا يُقدَّر بمقدار، ولا يُقاس بغيره من الأقسام، بل هو في ذاته نوعٌ فريدٌ من القسم لو علِمتم حقيقته.

نوع ﴿لَّوْ﴾ ودلالتها:

استبعاد معرفة المخاطَبين بمضمون القسم إلهابٌ وتحريض

في قوله تعالى: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾، ﴿لَّوْ﴾ حرف امتناعٍ لامتناع، وهي على هذا تُفيد أنَّ عظمةَ هذا القَسَمِ أمرٌ لا يُدركُه المخاطَبون؛ لأنَّهم لا يعلمونه، ولو كانوا يعلمونه؛ لأدركوا هولَ معناه وخطورةَ مضمونه، ولكنَّهم جَهِلوا، فامتنع الإدراكُ لامتناعِ العلم[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 425.
(2) حسن طَبَل، علم المعاني في الموروث البلاغيّ، ص: 169.
(3) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 76.

فـ﴿لَّوْ﴾ هنا ليست شرطيَّةً حقيقيَّةً تقع؛ لطلب وقوع الشَّرط؛ ليترتَّب عليه الجواب، ولكنَّها تفترض شيئًا ممتنع الوقوع لتُبيِّن عِظَمَ ما لو حصل، فالمعنى: وإنَّه لقسمٌ عظيمٌ، لو أنَّكم تعلمون قدرَه؛ لعظَّمتموه، ولكنَّكم تجهلون.

موقع ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾:

جاءت "جملة ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ معترضة بين الموصوف وصفته، وهي اعتراض في اعتراض"[1]، وهو يفيد تنبيهًا بعد آخر.

دلالة استعمال مفردة ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

رسـوخُ العلـمِ وتحقيق الإدراك مـطـلـب العـلـم بالقرآن

اختيرت مادَّة (عَلِمَ) في قوله تعالى: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ دون غيرها من موادِّ الإدراكِ كـ (عرف) أو (فهم) أو (شَعَر)؛ لأنَّها أدلُّ على الرُّسوخ، وأدلُّ على التَّيقُّن، وأدلُّ على إدراك الحقيقة على وجهها التّامِّ؛ فليس المراد هنا مجرَّد المعرفة العابرة والملاحظة العارضة، بل المقصود: لو كان عندكم إدراكٌ راسخٌ حقيقيٌّ لحقيقة هذا القَسَم وما يدلُّ عليه؛ لأدركتم عظيم شأنه.

دلالة التَّعبير بصيغة المضارع ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

تنبيه الغافلين عـلـى واقـعـهـم الأليـم من قيم الهداية والرَّشاد

جاءت صيغة المضارع ﴿تَعْلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على استمرار الفقد، فكأنَّه يقول: أنتم لا تزالون غافلين عن حقيقة هذا القَسَم، ولو أنَّكم في وقتٍ ما من أوقاتكم أدركتموه إدراكًا حيًّا مستمرًّا؛ لانخلعت قلوبكم لعظم ما يُقسَم به، ثمَّ إنَّ المضارع يدلُّ على الإمكان أيضًا، أي: إنَّ تحصيل هذا العلم ممكن، لكنَّ القلوب معرضة.

كما أنَّ الخطاب بضمير الجماعة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ يعمُّ المخاطَبين جميعًا، فهو تعريضٌ بجماعة الكفّار أو الغافلين في عصر الرِّسالة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 467، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 92، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 331.

ومن بعدهم، بأنَّهم لم يرتقوا إلى مستوى هذا الإدراك، فغابت عنهم عظمة مواقع النُّجوم، وعظمة ما تدلُّ عليه من شرف القرآن الَّذي أُنزل فيها.

غرض حذف المتعلّق بالفعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

شـرطُ الإيجـاز البليغ استنباط معـانـيـه من السّياق

حُذِفَ مفعول ﴿تَعْلَمُونَ﴾ في الآية: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ على طريقة الإيجاز البليغ، وهو حذف دلَّ عليه السّياق، واستغنى عنه السّامع بتمام المعنى، أي: "لو تعلمون عظمته، أي: دلائل عظمته، ولك أن تجعل فعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾ منزَّلًا منزلة اللّازم، أي: لو كان لكم علم، لكنَّكم لا تتَّصفون بالعلم"[1].

وهذا الحذف على طريقة ما يُسمّيه علماء البلاغة (احتباس الجواب؛ لإفادته مزيد تعظيم)، فالسّياق يدلُّ عليه أبلغ دلالة؛ لأنَّه قَسَمٌ بظاهرة كونيَّة مهيبة، والقرآن لا يقسم إلّا بما له شأن، فصار التَّقدير: (لو تعلمون عظمة هذا القسم؛ لعلمتم عظمة المقسَم عليه ولما وسعكم إلّا التَّصديق والخضوع).

ثمَّ إنَّ حذف الجواب هنا يجعل القارئ في حال من التَّوقُّع والتَّرقُّب، وكأنَّ المعنى يعلِّق القلب بشيء فوق التَّعبير، وهذا من مَواطن التَّأثير البيانيِّ الَّذي تتميَّز به بلاغة القرآن.

دلالة وصف القسم بعظيم:

تـفـخـيـمٌ لمقام القرآن وتمهيدٌ لـجـلال خبر القرآن

وَصْفُ القَسَمِ بأَنَّهُ ﴿عَظِيمٌ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ تَفخيمٌ لِمَقامِ القَسَمِ، وتَهويلٌ لِموضوعِه، وإشعارٌ بعَظَمَةِ المُقسَم بِهِ، وخُصوصًا لِمَن أُقسِمَ لَهُ عَلَيهِ، فوصفُ القَسَمِ بالعَظيمِ يَجعَلُ السّامِعَ في مَقامِ تَوقُّعٍ شَديدٍ لِما سَيُقسَمُ عَلَيهِ، ويُلقي في نَفسِهِ جَلالَةَ المَقصودِ ورَهبَتَهُ، وأنَّ أمرًا عَظيمًا خَفيًّا

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 332.

قَد أُبرِمَ القَسَمُ عَلَيهِ، وهوَ مِن بابِ التَّوكيدِ لِما سَيَأتي مِن خَبَرٍ عَنِ القُرآنِ، وأنَّهُ كَلامٌ عَظيمٌ يُناسِبُهُ قَسَمٌ عَظيمٌ، فكَأنَّ وصفَ القَسَمِ بالعَظيمِ مُقَدِّمَةٌ تُهيِّئُ النَّفسَ لِتَلقّي خَبَرٍ جَليلِ المَقامِ، هوَ قَولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾.

علَّة فصل جملة: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ﴾:

جُملَة: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ مفصولةٌ عَمّا قَبلَها؛ لأنَّها جواب القسم، فهي لا محلَّ لها من الإعراب.

بلاغة التَّوكيد في جملة جواب القسم:

التَّوكيد في جملة: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ جاء بأداة (إنَّ) في صدر الجملة، واللام في خبرها، وكلٌّ منهما من أدوات التَّوكيد المستقلَّة، فاجتماعهما يضاعف أثر الإقناع في النَّفس، ويؤكِّد مكانة الخبر الَّتي يُراد أن تُجلَّى، وقد ورد هذا التَّوكيد بعد قَسَمٍ جلَّله الله بعظمة، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، فجواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ يحمل دلالةً أخرى من التَّوكيد، فجاء ليرفع الشَّكَّ، ويدفع التَّردُّد، ويملأ القلوب يقينًا بأنَّ هذا الكلام الَّذي يُتلى عليكم هو قرآن، لا سِحرٌ ولا شعرٌ ولا أساطير.

شـأنُ التَّوكيد دفـع الـشَّـكِّ وتثبيت اليقين وإعـلاء مكانة الخبر

تعيين مرجع الضَّمير في جملة: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ﴾:

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ راجع إلى غير مذكور في الكلام؛ لكونه معلومًا مستحضرًا لهم[1]، فهو عائد إلى معلوم، وهو الكلام الَّذي أنزل على محمَّد ﷺ، وهو معروف عند المخاطَبين، وكان الكُفّار يقولون: إنَّه شعر، وإنَّه سحر، فقال تعالى ردًّا عليهم: إنَّه لقرآن عائد إلى مذكور، وهو جميع ما سبق في سورة الواقعة من التَّوحيد، والحشر، والدَّلائل المذكورة عليهما، والقسم

رجـوعُ الـضَّـميرِ إلى الـقـرآن من غير ذكـرٍ سابق يدلُّ على عظمة الـقـرآن وكـبير شأنه

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 332.

الَّذي قال فيه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾؛ وذلك لأنَّهم قالوا: هذا كلُّه كلام محمَّد ومخترع من عنده، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾[1]، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر: 1]، فعود الضَّمير على القرآن مع عدم تعيينه سابقًا من أسلوب القرآن، وهو يوحي بعظمةِ القرآن، فهو الَّذي يرجع إليه الضَّمير من غير تعيين لفظيٍّ سابق، ويُفهم على ضوء السّياق.

فائدة اختيار اسم (قرآن):

اختار النَّظم الكريم لفظَ القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ دون لفظ (كتاب)؛ لملاحظة أنَّه مقروءٌ على الألسن، مسموعٌ في الآذان، وهو الأنسب في سياق الاستدلال ومجادلة المشركين، فإنَّ المطلوب منهم تأمُّل المقروء المسموع، لا قراءة المكتوب، فللقرآنِ دلالة على التِّلاوة المتكرِّرة، والمشافهة المتواصلة، ومظاهر الإعجاز البيانيِّ الَّذي يُدرَك بالسَّماع والمباشرة، لا بمجرَّد الكتابة أو التَّدوين، وهو اسمٌ حيٌّ في الأذهان والأسماع، مناسبٌ للحديث عن أثره في النّاس وبلوغه مبلغ البيان، بخلاف (كتاب) الَّذي يغلب عليه معنى التَّدوين والحفظ.

الأنسب في سياق جدال المشركين إسماع مقروء الأدلَّة لا مطالبتهم بقراءة مكتوبها

توجيه وصف القرآن بالكريم:

وُصِف القرآن بالكريمِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾؛ لنكتةٍ بلاغيَّةٍ، ذلك أنَّ اسم الكريم جامعٌ لخصالِ الخير، كثيرُ العطاء، والكريم: النَّفيس الرَّفيع في نوعه[2]، دائمُ الإحسان، وهو يُستعمَل لما يحسنُ في ذاته، ويحسن أثرُه، ويُعبِّر عن البركة والنَّفع والرِّفعة، وكلُّها صفاتٌ تليق بالقرآن في مقام بيان خصائصه، ومرتبته، ومكانته بين الموجودات، ولم يوصَف بالعظيم؛ ذلك لأنَّ القسم قد

اكتسب القرآن العظمة من السّياق والكرم من الوصف، فاجتمع له الوصفان

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 428.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 333.

وصف بالعظيم، فاكتسب القسم عظمته من عظمة القرآن، فوصف العظيم وصفٌ ضمنيٌّ منتزَعٌ من السّياق، فاجتمع للقرآن الوصفان، العظمة من السّياق، والكرم من الوصف.

وهناك تناسب لطيف بين انتقاء لفظ ﴿لَقُرْءَانٌ﴾، ووصفه بكريم، والمعنى: لا يهون بكثرة التِّلاوة، ويبقى أبد الدَّهر كالكلام الغضِّ والحديث الطَّريِّ[1].

بلاغة استعمال حرف الظَّرفية:

جاء استعمال حرف الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ دقيقًا بالغًا في التَّصوير، ينطوي على بلاغة خاصَّة، تتناسب مع السّياق الَّذي يُراد منه تعظيم شأن القرآن وتنزيهه وبيان مكانته المصونة، فقد جعله شيئًا مظروفًا بكتاب، وفيه أوجه أحدها: المظروف: القرآن، أي: هو قرآن في كتاب، أو المظروف كريم على معنى أنَّه كريم في كتاب، فالقرآن كريم في اللَّوح المحفوظ[2]، وقيل: المظروف هو مجموع قوله تعالى: ﴿لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾، أي: هو كذا في كتاب، والمراد حينئذٍ أنَّه في اللَّوح المحفوظ نعته مكتوب: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾[3].

القرآن وصفته معًا ثابتان في كِتابٍ مَكنونٍ

والظَّرفيَّة تشير إلى كون القرآن مُستودَعًا في كتابٍ عالٍ منزَّه، وهو اللَّوح المحفوظ، قبل أن يُنزل على قلب النَّبيِّ ﷺ، وهذا يفيد شرف المصدر، وعظمة المحلِّ، وعناية الحفظ، ويفيد أيضًا أنَّ ما كان في (الكتاب المكنون) لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فجاءت ﴿فِي﴾؛ لتُشعر بالعناية والحفظ؛ إذ الَّذي يكون (في) شيء، محروسٌ به، وكذلك بالعلوِّ والشَّرف؛ إذ إنَّ (الكتاب المكنون) ليس كتابًا أرضيًّا، بل هو مقام تنزيه[4].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 429.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 430.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 430.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 333.

دلالة استعمال لفظ ﴿كِتَٰبٍ﴾:

براعة الجمع بين قرآن وكتاب في سياقٍ دالٍّ على إرادة الدَّلالتين معًا

إنَّ اختيار لفظ ﴿كِتَٰبٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ جاء؛ ليدلَّ على معنى الإحاطة والحفظ والضَّبط، ويُفهَم منه أنَّ هذا القرآن - الَّذي هو محلُّ القَسَم وتعظيم القدر - مكتوب ومسطور في موضعٍ محفوظٍ عالٍ، وهو ما عبَّر عنه بعض المفسِّرين باللَّوح المحفوظ، وهذا التَّعبير بـ﴿كِتَٰبٍ﴾ بدلًا من (الصُّحف) أو (الألواح) أو غيرها من مفردات القرآن الدّالَّة على الكتب السَّماويَّة، فإنَّه يوحي بالتَّدوين الثّابت، والإحاطة التّامَّة، والعناية البالغة بالمحتوى، كما أنَّ لفظ ﴿كِتَٰبٍ﴾ يحمل في القرآن حمولة معنويَّة دائمة تشير إلى التَّشريع والوحي والتَّنزيل الإلهيِّ المعصوم، ويمكن أن يكون قد "استُعير الكتاب للأمر الثّابت المحقَّق الَّذي لا يقبل التَّغيير، فالتَأَمَ من استعارة الظَّرفيَّة لمعنى المطابقة، ومن استعارة الكتاب للثّابت المحقَّق معنى موافقة معاني هذا القرآن لما عند الله من متعلِّق علمه، ومتعلِّق إرادته وقدرته، وموافقة ألفاظه لما أمر الله بخلقه من الكلام الدّالِّ على تلك المعاني على أبلغ وجه"[1].

نكتة تنكير لفظ ﴿كِتَٰبٍ﴾:

تفخيمٌ وتعظيم وتناسبٌ بين إيحاء التَّنكير ومعنى المكنون

نُكِّر لفظُ ﴿كِتَٰبٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾؛ للتَّعظيم والتَّفخيم، أي: في كتابٍ لا يُدرَك كنهه، ولا تُحاط صفاته، وفي تنكيره تنزيهٌ لشأنه، أي: في كتابٍ مُباين لما تعهده العقول من الكتب، فهو كتابٌ ليس كسائر الكتب، بل هو في عالمٍ أرفع، في لوحٍ مصون عن عبث البشر، فالكتاب هنا أشبه بالوصف المجمل الَّذي يُفصح عنه السّياق، فيكون من التَّعظيم بالتَّجهيل، كما قالوا: (فلانٌ رجلٌ).

ووقع تنكير ﴿كِتَٰبٍ﴾ مناسبًا لمعنى ﴿مَّكْنُونٍ﴾؛ لأنَّ المكنون "هو في ستر مصون لما له من النَّفاسة والعلوِّ في السَّماء في

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 333.

اللَّوح المحفوظ، وفي الأرض في الصُّدور المُشَرَّفة، وفي السُّطور في المصاحف المُكَرَّمة المُطَهَّرة، محفوظًا مع ذلك من التَّغيير والتَّبديل"[1]، فكأنَّ التَّنكير يواطئ معنى الكِنانة والسَّتر، وهذا من بلاغة التَّوافق بين اللَّفظ والمعنى.

نكتة وصف الكتاب بالمكنون:

الكتاب المكنون هو المُصان عن أيدي العابثين وعن تُهمةِ المُشكِّكين

آثر النَّظم الكريم وصف الكتاب في قوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ بالمكنون، والكِنانُ: الغِطاء السّاتر، والفعل من هذه المادَّة، يُستعمل ثلاثيًّا ورباعيًّا، يقال: كَنَنتُ الشَّيء، وأكنَنتُه كِنًّا وأكنانًا، وخُصَّ كَنَنتُ بما يَستُرُ من بيتٍ أو ثوب أو غير ذلك من الأجسام[2]، ووصفُ الكتاب بالمكنون يأتي في سياقٍ يُراد به تقريرُ جلالة القرآن ورفعة مكانته، وتمييزه عن سائر ما يُدعى كلامًا، أو يُظنُّ وحيًا، و(المكنون) من الكِنانة، وهي السَّتر، فالمكنون هو المصون المحجوب، أي: إنَّ هذا القرآن قد كان في أصل نشأته مستورًا عن العيون، محفوظًا في عالمٍ أعلى، لا تصل إليه الأيدي، ولا تناله الظُّنون[3]، مصون عن أن يأتيه الباطل أو من غير المقرَّبين من الملائكة لا يطَّلع عليه من سواهم[4].

نكتة الاستعارة في وصف الكتاب بالمكنون:

الكتاب المكنون حجاب العلم الإلهيّ ومجمع الحكم الرَّبّانيّ

الكتاب المكنون "مستعارٌ لموافقة ألفاظ القرآن ومعانيه ما في علم الله تعالى وإرادته وأمرِه الملك بتبليغه إلى الرَّسول ﷺ، وتلك شؤون محجوبة عنّا؛ فلذلك وصف الكتاب بالمكنون اشتقاقًا من الاكتنان، وهو الاستتار، أي: محجوب عن أنظار النّاس، فهو أمر مغيَّب لا يعلم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 425.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 4/ 577.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 430.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 429.

كُنْهَهُ إلّا الله"[1]، وفي ذلك إشعارٌ بأنَّ هذا الكتاب ليس ممّا جال في خواطر البشر أو تسطير الكتبة، بل هو مكتوبٌ عند الله، مُصانٌ من التَّبديل والتَّغيير، محفوظٌ في لوحٍ كريم، فجاء وصف ﴿مَّكْنُونٍ﴾؛ ليُشعر بعصمته من الدَّناسة، ومن أيِّ لون من ألوان الشَّكِّ أو الدَّخيل، كما يُكنُّ الشَّيء النَّفيس، فلا يُعطى إلّا لأهله.

بلاغة القصر في قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ قصر بالنَّفي والاستثناء، فهو نفيٌ لكلِّ ماسٍّ، وإثبات المسِّ للمطهَّرين دون مَن سِواهم، وفائدة القصر أنَّه يُبيِّن اختصاصَ هذا الكتاب الكريم بطائفة مخصوصة، لا يناله أحدٌ إلّا من تطهَّر، أي: من كان مطهَّرًا من الدَّنس الحسّيِّ أو المعنويّ، بحسب الاحتمالين في تفسير الآية، كما أنَّ دلالة الحصر تُناسب ما تقدَّم في قوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾، فحصر المسِّ في المطهَّرين يقتضي قصر العلم على بعض النّاس، وهو ما دلَّ عليه وصف الكتاب بالمكنون.

علم الكتاب مقصورٌ على بعض النّاس، وهو المتَّسق مع صفة مكنون

براعة اختيار مفردة ﴿يَمَسُّهُۥٓ﴾:

في قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾؛ تتجلّى براعةُ اختيار لفظ ﴿يَمَسُّهُۥٓ﴾ دون (يَلمِسُه) في دقَّة التَّعبير القرآنيِّ ومطابقته للمقام، فإنَّ مادَّة (مَسَّ) تدلُّ على أدنى اتِّصال، ولو كان خفيفًا عابرًا، أمّا (لَمس)؛ فغالبًا ما يُستعمَل في اللَّمس المتعمَّد المقصود، وغالبًا ما يكون بأطراف الأنامل أو اليد، وقد أشار الفرّاء إلى معنًى دقيق، فقال: "لا يجد طعمه ونفعه إلّا من آمن به، يعني القرآن"[2].

المسُّ هو أدنى اتِّصالٍ ويشمل القلب والعقل والشُّعور والعمل

فاستعمال ﴿يَمَسُّهُۥٓ﴾ أبلغ في الدَّلالة على شمول المنع حتَّى لأخفِّ اتِّصال وأدناه، فهو نفيٌ لتمام المباشرة، ولو كانت بغير قصد، وفي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 333.
(2) القيروانيّ، النّكت في القرآن الكريم، ص: 481.

هذا مزيدُ تعظيمٍ للقرآن، وتنزيه له عن أن يباشره إلّا من كان في غاية الطَّهارة، وهذا يتناسق مع وصفه بأنَّه ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾، أي: مصون مستور، لا يناله أدنى تماسٍّ إلّا من بلغ حدَّ الطَّهارة.

فائدة التَّعبير بصيغة ﴿ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾:

التَّعبير بصيغةِ ﴿ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ دون (الطّاهِرون)، في قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾؛ فلفظ (الطّاهرون) يدلُّ على من تحقَّق فيهم وصف الطَّهارة من حيث كونها صفةً لازمة أو حالًا مكتسبة بفعلهم، أمّا المطهَّرون؛ فصيغة اسم المفعول هذه تفيد أنَّ الطَّهارة واقعةٌ عليهم بفعل فاعلٍ آخر، أي: إنَّهم طُهِّروا تطهيرًا، فصاروا في حالة من الصَّفاء المصطفى والاختيار الخاصِّ، لا ينالها كلُّ طاهرٍ من النّاس، ففيه إيماءٌ إلى التَّوفيق الرَّبّانيِّ في تطهير طالبِ الطَّهارة، وتكريم السّاعي وراء الكرامة.

(المطهَّرون) يصدق على المؤمنين في توفيقهم للطَّهارة والملائكةِ في تطهيرهم أصالة

ومن ثمَّ، دلَّ هذا التَّعبير على الاختصاص، فليس كلُّ طاهرٍ من النّاس يمسُّه، بل من نال تطهيرًا مخصوصًا، قد يكون إلهيًّا أو من جهةٍ سامية، كما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا ٣٣﴾؛ إذ المطهَّرون أبلغ في الثَّناء من الطّاهرين؛ إذ فيه معنى الاصطفاء والعناية الإلهيَّة، وهذا على أنَّ المراد بهم المؤمنون.

وعلى أنَّ المراد بهم الملائكة، فهُم المطَهَّرون من الذُّنوب، وقال مالك في الموطَّأ: أحسن ما سمعت في هذه الآية: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ أنَّها بمنزلة الآيات في سورة عبس؛ قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦﴾ [عبس: 11 - 16]، يريد أنَّ ﴿ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ هم السَّفرة الكرام البررة، وليسوا النّاس الَّذين يتطهَّرون[1].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 334.

نكتة التَّعبير بمفردة ﴿تَنزِيلُ﴾ صيغة ومادَّة:

التَّدرُّج في إنزال الرَّحمات الرَّبّانيَّة والعناية الإلهيَّة

في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، جاءت كلمة تنزيل بصيغة (تفعيل)، وهذه الصّيغة تدلُّ على التَّدرُّج والتَّتابع في الإنزال، لا على الدَّفعة الواحدة، أي: وصوله إليكم بالتَّدريج بحسب الوقائع والتَّقريب للأفهام والتَّأنّي والتَّرقية من حال إلى حال وحكم بواسطة الرُّسل من الملائكة[1]؛ لتُحاكي بذلك الواقع التّاريخيَّ لنزول القرآن؛ إذ نزل مُفرَّقًا بحسب الوقائع، مُناسبًا للأحوال، ومُثبِّتًا للفؤاد، كما قال تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ [الإسراء: 106]، ففي اختيار هذه الصّيغة: إيحاء بالرِّفق واللُّطف: فكأنَّ الله يُنزِّل رحمته شيئًا فشيئًا على عباده، كما تُنزَّل القطرات على الأرض العطشى، وفيها إشارة إلى العناية المستمرَّة؛ إذ كلُّ إنزالٍ متجدِّدٍ هو عناية جديدة، وهداية متجدِّدة.

نوع ﴿مِّن﴾ ودلالتها:

جمع حرف الابتداء بين دلالة التَّشريف واختصاص تنزيل القرآن من ربِّ العالمين

حرف ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ للابتداء، أي: هو تنزيل صادر من عند ربِّ العالمين لا من غيره، فدلَّ الابتداء على معنى التَّشريف والتَّمجيد، فذكر المصدر الرَّبّانيِّ بلفظ ﴿رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بعد ﴿مِّن﴾ يُضفي على القرآن عظمة وجلالة، ويدلُّ على أنَّه كلامٌ صادر من العليِّ الأعلى، لا من البشر ولا من ملك مقرَّب، وعلى إفادة الاختصاص، فحرف ﴿مِّن﴾ يُفيد القَصر الضِّمنيَّ، والمعنى: لا تنزيل إلّا من ربِّ العالمين، أي: لا يمكن أن يصدر مثل هذا الكلام من أحدٍ غيره سبحانه، لما فيه من الإعجاز والإحاطة بالمعاني العلوية، ففيه ردٌّ على المشكِّكين بافتراء القرآن، واتِّهام سيِّد الخلق بالأخذ عن الكتابيّينَ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 426.

توجيه اختيار عنوان الرُّبوبيَّة دون الألوهيَّة:

سـرُّ اختيار عنوان الرُّبوبيَّة في (تنزيل من ربّ العالمين) وملاءمته للسّياق

اختير في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عنوان (الرُّبوبيَّة) دون (الألوهيَّة)؛ لما في معنى الرَّبِّ من ملاءمة تامَّة للسّياق، وبلاغة مقتضى الحال، ويتجلّى ذلك في موافقة سياق الكلام، فقد تقدَّم ما يدلُّ على معاني الرُّبوبيَّة من الخَلق والتَّكوين والتَّدبير، مثل قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾، وقوله: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾، ثمَّ خُتِم بالحثِّ على تسبيح الرَّبِّ في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، فكان الأنسب أن يُقال هنا: من ربّ العالمين؛ إذ هو السّياق الَّذي يُظهر سياق الرُّبوبيَّة العامَّة، لا الألوهيَّة الَّتي تتعلَّق بالعبادة خاصَّة.

دلالة إضافة ﴿رَّبِّ﴾ للفظ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

التَّركيب الإضافيُّ (ربّ العالمين) يوحي بالرِّعاية الرَّبّانيَّة للعوالم الكونيَّة

أُضيف لفظ ﴿رَّبِّ﴾ إلى لفظ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والإضافة بمعنى اللّام، فهي تفيد الاختصاص، أي: ربٌّ للعالمين، ولفظ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جمعٌ لا يُراد به التَّعدُّد فحسب، بل التَّنوُّع والانضواء تحت رعاية واحدة، فالرَّبُّ هنا ربٌّ جميع العوالم: عالم الإنس، والجنِّ، والملائكة، والأرض، والسَّماوات، وما لا يُحصى من صنوف الخلق، فالإضافة هنا تفيدُ إحاطة السُّلطان وتفرُّد المُلك، كأنَّها تقول: إنَّ الَّذي أنزل هذا القرآن هو الَّذي لا يخرج شيء من أمره عن ربوبيَّته، وهو ما يُضفي على القرآن طابعًا كونيًّا، وتدلُّ على الشُّمول في التَّربية والإصلاح؛ إذ (الرَّبُّ) هو الَّذي يُربّي، وتربيته لا تقتصر على الخلق الجسمانيِّ، بل تشمل التَّربية الرّوحيَّة والعقليَّة، والقرآن من أعظم مظاهر هذه التَّربية، فهو تنزيل من جهةٍ مربّية، عليمة بما يُصلح العوالم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّجم جرمٌ سماويٌّ مشعٌّ بذاته، والكوكب جرمٌ معتمٌ في جوهره

النَّجم والكوكب:

(النَّجم) في أصل الوضع اللُّغويِّ، يُطلَق على كلِّ جرمٍ سماويٍّ

يُضيء بذاته، فهو مشتعلٌ، متوهِّجٌ، تصدر عنه الأنوار من باطن تكوينه، لا يحتاج إلى غيره ليظهر للنّاظر، بل هو منبع النّور لا مستقبله؛ ولذلك ارتبط في معجم اللُّغة بالطُّلوع[1]، والبروز، والإشعاع الذّاتيِّ، فالنَّجم إذًا جسم سماويٌّ مشعٌّ بذاته، دائم التَّوهُّج، ويُرى من تلقاء نفسه دون عونٍ من مصدرٍ آخر.

أمّا (الكوكب)؛ فلفظ بُدئ بكاف زائدة، وأصله (وكب)[2]، وهو يدلُّ في الاستعمال العربيِّ على جرمٍ سماويٍّ غير مشعٍّ بذاته، يستمدُّ نورَه من غيره، وتحديدًا من النَّجم الَّذي يضيء له، ولذا قيل: الكوكب ما لمع ضوؤه، وانعكس إلى العين دون أن يكون مصدرًا للضَّوء، بل هو عاكسٌ للضَّوء لا منشئٌ له، ومن دلالاته المعجميَّة: التَّحرُّك والدَّوران، لا التَّوقُّد والإشعاع، أمّا من ناحية الدَّلالة الصَّوتيَّة والاشتقاقيَّة؛ فالنَّجم يرتبط في اشتقاقه بالجذور الدّالَّة على الظُّهور والانبثاق، أمّا الكوكب؛ فمأخوذ من الحركة والانقِلاب، وربَّما التَّداخل أو الانكدار.

فالنَّجم إذًا هو الجرم السَّماويُّ المشتعلُ بنفسه، يبعث نورًا بذاته، ويُمثِّل طاقةً فيزيائيَّةً عظيمة، بينما الكوكب جرمٌ سماويٌّ معتمٌ في جوهره، يعكس ضوءًا خارجيًّا، وتختلف صفاتُه وظيفيًّا عن النَّجم.

(1) الراغب، المفردات، ص: 791.

(2) ابن سيده، إعراب القرآن: 4/ 41.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والخمسون،
سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 59 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-648-68-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 59 : المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-648-68-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7377148 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"